الفصل الثالث
مختارات نثرية
من العصر الجاهلى

obeikandl.com

obeikandl.com

النثر الجاهـلى:-

لا نريد أن نخوض في تلك القضية المشهورة : أيهما أسبق : الشعر أو النثر ؟ وإذا تبين أن النثر سابق للشعر، فأين هى النصوص النثرية التى تعطينا صورة واضحة أو دقيقة للنثر في هذا العصر.

ثم إلى أى مدىً يمكن التأكد من نسبة هذه النصوص القليلة إلى العصر الجاهلى ؟ أى أن القضية تنتهى إلى أن تصبح " قضية توثيق النثر الجاهلى " ، لا نريد أن نطيل في ذلك ؛ لأن للقضية مكانها الذى تدرس فيه بين القضايا التى يهتم بها تاريخ الأدب الجاهلى .

وعلى أية حال فسوف نقوم في الصفحات القادمة- إن شاء الله- بالنظر في روائع هذا النثر، ونتأمل أنواعه التى وجدت في العصر الجاهلى .

أولاً : الخطابة :-

تطلق الخطابة على كل كلام يقصد به الخطيب : التأثير في جمع من الناس ، وإقناعهم بالقضية التى يتحدث عنها ، وهى تكثر وتزدهر بتعدد دواعيها .

ويمكن القول على وجه العموم : إن فترات انتعاشها ترتبط إلى حد كبير بتعدد الآراء في المجتمع الواحد ، واشتعال الخصومات والمنازعات التى تقتضى حرص كل خصم - أو فريق - على الاقتناع بصحة موقفه ، وصواب رأيه ، على حين أن الحاجة تقلُّ إذا استقر المجتمع ، ورسخت قيمه - الدينية أو الاجتماعية - في وجدان أبنائه ، وعمَّهم الأمن والسلام والسكينة .

عوامل ازدهارها فى العصر الجاهلى :-

إذا نظرنا إلى الخطابة في العصر الجاهلى على ضوء ما سبق ، لن ندهش إذا وجدناها مزدهرة لأن كل جوانب الحياة كانت تدعو إلى ازدهارها .

فقد شُهر العرب بتأصل ملكة البيان فيهم ، حتى صار الكلام صناعة من أنضج صناعاتهم يزهى بإجادتها ، وتمتلئ أسواقهم الأدبية بالمبرزين فيها كما كانت لازمة من

لوازم حربهم : حثا على القتال وتحميسًا عليه وفي سلمهم : دعوة إلى حقن الدماء ، ونبذ الضغائن ، واجتماعهم في كافة نواحيه : زواجًا أو صلحًا ، أو حديثا باسم وفدٍ أمام عظيم .

وقد تبوأ الخطيب في المجتمع الجاهلى مكانة عالية فاقت تلك التى كان يتمتع بها الشاعر على الرغم من أهميتها .

وقد علل الجاحظ لذلك فيما يحكيه عن أبى عمرو بن العلاء من أن الشاعر " كان يُقدم على الخطيب في الجاهلية لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يُقيّد عليهم مآثرهم ، ويُفخّم من شأنهم ، ويخوِّف من كثرة عددهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرّعوا إلى مدحهم ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر " [1] .

وربما رجع هذا التفوق إلى أن الخطابة كانت من لوازم سادتهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل ومن هنا : اقترنت بالحكمة والشرف والرياسة ، كما أن مجال الخطابة أوسع من مجال الشعر ، إذ أن الخطيب كان يفتخر ويفاخر عن قومه ، ويحضّهم على القتال يشترك في ذلك مع الشاعر ، ثم ينفرد هو بمواقف خاصة كالوفادة على الملوك والنصح والإرشاد ، والحث على السلم ، وإنهاء الحروب المشتعلة ، أما الشاعر فلم يدعو إلاّ للأخذ بالثأر وإشعال الحروب [2] والتسليم بهذه الأسبقية يدعونا إلى التسليم بنهضة خطابية مزدهرة قد شهدها العصر الجاهلى ، وهى الأخرى تدعونا إلى الظن بأن ما وصلنا منها لا يدل عليها ، ولا يعكس مدى ازدهارها ، ولا يتفق مع الكثرة التى شُهرت بالخطابة في العصر الجاهلى ، ولم نجد لها في كتب التراث سوى ذكر أسمائها .

فالتاريخ يحفظ لنا طائفة من أسماء هؤلاء الخطباء ، ويُعدَّ كعب بن لؤى الجد السابع للرسول (ﷺ) أقدم خطباء العرب الأقدمين ، لكن المعلومات المتوفرة عنه وعن خطبه جد قليلة ، فيقال : إنه كان يخطب في العرب عامة ، وكان يحض على البر ، وعلا نجمه لذلك واحتل بين قومه منزلة رفيعة ، لدرجة أنهم لّما مات أكبروا موته بالتأريخ به ، إلى أن جاء عام الفيل فأرَّخوا به .

١-البيان والتبيين ، ١/ ٢٤١ .

٢-راجع الفن ومذاهبه ، د . شوقى ضيف / ٢٨ ، ٢٩ ، طبعة ٨ دار المعارف ١٩٧٧م .

كما يُعد من أشهر خطبائهم " قيس بن خارجة " خطيب حرب داحس والغبراء ، " وحُويلد بن عمر الغطفانى " خطيب حرب الفِجَار ، و " قيس ابن ساعدة " خطيب عكاز ، و " أكثم بن صيفى " حكيم العرب وقاضيها وزعيم خطبائها و " المأمون الحارثىّ " و " عتبة بن ربيعة " خطيب قريش في حرب بدر و " سُهيل بن عمرو الأعلم " الذى قال عنه عمر -رضى الله عنه- للنبى (ﷺ) :

يا رسول الله ، " انزع ثنيتيه السفليين حتى يُدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا " .

فرد عليه الرسول الكريم : " لا أُمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبيًا ، دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقامًا تحمده " [1] .

وقد صدق توقع الرسول الكريم ، فأسلم هذا الرجل ، وكانت له مواقف محمودة في الذود عن الإسلام .

ومن خطباء مكة أيضًا : نفيل بن عبد العزّى جد عمر بن الخطاب .

أما المدينة فقد كان من خطبائها : قيس بن الشّماس ، وسعد بن الربيع ، الذى سأل الرسول ابنته : من أنتِ ؟ فقالت : ابنة الخطيب النقيب سعد ابن الربيع [2] .

ولم يقتصر وجود مشاهير الخطباء على مكة والمدينة ، بل وجدنا كثيرًا منهم ينبغ بين تلك القبائل المتفرقة في بوادى شبه الجزيرة ، فكان ابن عمار الطائى خطيب مُذْحِجْ كلها ، وربيعة بن حُذار خطيب بنى أسد .

وقد عرفت تميم بكثرة خطبائها ، وكان منهم أكثم بن صيفى ، وعُطارد ابن حاجب بن زرارة خطيب وفدها بين يدى الرسول (ﷺ) .

وهذه الكثرة الكاثرة من الخطباء في العصر الجاهلى - بخلاف من طمست الرمال آثارهم - تدل على ازدهار الخطابة في هذا العصر ازدهارًا كبيرًا ، وهذا يمكن تصوره إذا تذكرنا أننا في عصرنا الحديث نعد فترة معينة من فترات التاريخ الأدبى فترة انتعاش في

١-البيان والتبيين ، الجاحظ ، جـ ١ / ٣١٧ .
٢-المصدر السابق نفسه : ص ٣٥٧ ـ ٣٦٠ .

للخطابة مع أننا لو حاولنا حصر خطبائها المُبرَّزين لوجدناهم لا يتعدون أصابع اليد الواحدة[1] .

تقاليد الخطباء في العصر الجاهلى :-

كان للخطباء الجاهليين تقاليد خاصة يتبعونها في خطابتهم ، فهم - مثلاً - كانوا يخطبون وهم على ظهور رواحلهم في المواسم الأدبية والمحافل الكبيرة . كما تعودوا على لوث العمائم على رؤوسهم ، وتجسيد انفعالاتهم بالإشارة بالعِصىّ والقنا والقطبان والقِسىّ.

كذلك اهتموا بجهارة الصوت وشدته ، وقوة العارضة وظهور الحجة وثبات الجَنان وإفحام الخصوم .

كذلك عابوا على الخطيب أمورًا ، منها : أن يعترضه الارتعاش والرِّعْدة والحصر والعِىّ أو أن يمس ذقنه [2] .

****

١- راجع - على سبيل المثال - أسماء الخطباء السياسيين والبرلمانيين والقضائيين المشهورين عقب ثورة ١٩١٩م ثم الخطباء الدينيين الذين أفرزتهم جماعة الإخوان المسلمين .

٢- انظر ، فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين للجاحظ .

نماذج من الخطابة في العصر الجاهلى

النموذج الأول : من خُطبة للمامون الحارثىّ:-

قعد المأمون الحارثى في نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلاً ثم قال : " أُرعونى أسماعكم ، وأصغوا إلىٰ قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ، طمح[١] بالأهواء الأشر[٢] وران[٣] على القلوب الكدر[٤] وطخطخ[٥] الجهل النظر إن فيما نرى لمعتبرًا لمن اعتبر : أرض موضوعة وسماء مرفوعة وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتعزب ، وشاب مُحتَضر ويفنٌ قد غبر ، وراحلون لا يؤبون ، وموتوفون لا يفترون ، ومطر يُرسل بقدر ، فيحيى البشر ويورق الشجر .. إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر البارئ المصور . يا أيها العقول النافرة والقلوب النائرة أنى تؤفكون وعن أى سبيل تعمهون ، وفي أى حيرة تهيمون[٦] ، وإلى أى غاية توفضون[٧] ؟ لو كُشفت الأغطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة ".

النموذج الثاني : من خطبة قيس بن ساعدة الإيادىّ :-

لما قدم وفد إياد على النبى (ﷺ) قال : ما فعل قيس بن ساعدة؟ قالوا: مات يا رسول الله . قال : كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق [٨] وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله ، قال : كيف سمعتَه يقول ؟ قال : سمعتُه يقول : " أيها الناس : اسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آتٍ ، ليل داجٍ ، وسماء ذات أبراج ، وبحار تزخر[٩] ونجوم

١- ذهب والطماح هو النشوز والجماح .
٢- المرح وهو كالفرح .
٣- غطى .
٤- ضد الصفو .
٥- طخطخ النظر أى أضعفه أو أعماه .
٦- تسيرون فى تخبط .
٧- تسرعون .
٨- في لونه بياض يميل إلى السواد .
٩- تمتلئ وتفيض .

تُزهر [1] وَضوء وظلام ، وبِرٌّ وآثام ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرَضُوا بالمُقام فأقاموا ؟ أم تُركوا فناموا ؟ وإلهِ قيس ما على وجه الأرض دينٌ أفضل من دينٍ قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى [2] لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه وعصاه " ثم أنشد يقول :

فـــي الـــذاهبين الأولـــين (م) مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر
لمـــا رأيـــت مـــواردًا للمـــوت لـــيس لهـــا مصـــادر
ورأيـــت قـــومىَ نحوهـــا يمضـــى الأصـــاغر والأكـــابر
أيقنـــت أننـــى لا محـــا (م) لـــة حيـــث صـــار القـــوم صـــائر

****

النموذج الثالث:من خطبة لأكثم بن صيفى يدعو قومه إلى الإسلام :-

لما ظهر النبى (ﷺ) بمكة ، ودعا الناس إلى الإسلام ، بعث أكثم ابن صيفى ابنه حُبيشًا فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال : " يا بنى تميمٍ لا تحضرِنى سفيهًا [3] كبرت سنى ودخلتنى ذلة ، فإذا رأيتم منى حسنًا فاقبلوه ، وإذا رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم [4] إن ابنى شافهَ هذا الرجل مشافهةً وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله – تعالى- ، وخلع الأوثان .. وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه ، إن أحق الناس بمعونته ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقًا فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه .. فكونوا

١- تضئ .
٢- هى الجنة ، وقيل دعاء بالخير .س
٣- أى : لا تحضروا الىّ سفهاء ضيقى الأفق .
٤- أى أرشدونى الى الصواب فأتبعه .

في أمره أولاً [1] ولا تكونوا لآخرًا ، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين .. فإنى أرى أمرًا لا يجتنبه عزيز إلاّ ذلّ ، ولا يلزمه ذليل إلاّ عَزّ " .

النموذج الرابع : خُطبة أبى طالب في تزويج الرسول الكريم من أم المؤمنين خديجة بنت خُويلد :-

قال : " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ونسل إسماعيل ، وجعل لنا بلدًا حرامًا وبيتًا محجوجًا [2] وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد ابن عبد الله بن أخى من لا يُوزن به فتى من قريش إلاّ رجح عليه برًا وفضلاً وكرمًا وعقلاً ومجدًا ونبلاً ، وإن كان في المال قُلّ ، فالمال ظلٌّ زائلٌ ، وعارية مسترجعة [3] وله في خديجة بنت خُويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ " .

النموذج الخامس : تعزية أكثم بن صيفى لعمرو بن هند فى وفاة أخيه:-

يقول : " أيها الملك : إن أهل هذه الدار سَفْرٌ [4] لا يحلون عقد الترحال إلاّ في غيرها وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعن عنك ويَدْعُكَ .

إن الدنيا ثلاثة أيام : فأمس : عِظةٌ وشاهد عدل ، فجعك بنفسه [5] ، وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم : غنيمة وصديق أتاك ولم تأتهِ ، طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته ، وغد : لا تدرى من أهله ، وسيأتيك إن وجدك [6] . فما أحسن الشكر للمنعم ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها ؟! واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها [7] ، وخير من الخير مُعطيه ، وشر من الشر فاعله " .

---

١ ـ أى كونوا سابقين إلى اعتناق الإسلام .
٢ ـ كان العرب يقصدون الكعبة للحج على شريعة إبراهيم عليه السلام ، وهؤلاء كانوا قلة بالنسبة الى الذين يحجون إليها لوجود أصنامهم بداخلها .
٣ ـ شىء مُسترد .
٤ ـ أى مسافرون راحلون .
٥ ـ أى أنقص من عمرك يومًا .
٦ ـ أى إن كنت موجوداً على قيد الحياة .
٧ ـ أى الآثار التى تتركها فى المصاب .

● فنون تفرعت عن فن الخطابة في العصر الجاهلي:-

تفرع عن الخطابة في بعض الأحيان أنواع أدبية نثرية ظلت ذات صلة وثيقة بالأصل الذى تفرعت عنه ، وإن أخذت اتجاهًا مختلفًا إلى حد ما ، ونعنى بذلك : المنافرات والوصايا .

وهذه كلمات موجزة عن كل لون من هذين اللونين :

(أ) المنافرات :-

المنافرات : نوع من النثر المأثور عن العصر الجاهلي ، وهى عبارة عن حوار يدور بين اثنين يبدأ هادئًا ثم تشتد حدته ويطول بينهما الجدل واللجاج فيلجآن إلى المنافرة أى إلى التحاكم إلى شريف أو عظيم منهم ليفصل بينهما ، ويُظهر الحق في جانب أحدهما أو يسوى بينهما .

وأشهر ما رُوى من منافرات تلك التى وقعت بين عامر بن الطُّفَيل وعَلْقمة بن عُلاثة وكلاهما من عامر[1] .

فيحكى أن عامر تصدى لعلقمه ، وكان مما جاء على لسان عامر : " واللّه لأنا أشرف منك حسبًا وأثبت منك نسبًا ، وأطول قصَبا [2] ". فرد علقمة : " أُنافِرُكَ وإنى لبرٌّ وانك لفاجر[3] ، وإنى لولودٌ وانك لعاقِر ، وإنى لوفىٌّ وإنك لغادر " .

فقال عامر : أنافِرُكَ وانى أنشر منك أمة [4] ، وأطول منك قمَّةً وأبعد همة[5] . وطال بينهما الأخذ والرد ، وحَسْمًا لهذا الجدل تواعدا على الخروج إلى مَنْ يحكم بينهما وخشى حكماء العرب وقادتهم أن يفصلوا بينهما بتفضيل أحدهما فتشتعل العداوة بين فخذيهما . حتى تصدى لذلك هرَم بن قطبة الفزارى (وهو غير هرم بن سنان ممدوح

---

١ ـ أنظر البيان والتبيين ٢٣٧/١ ، ٣٦٥ .
٢ ـ قصباً : يريد أنه أقوى منه وأعظم فروسية من قولهم " أحرز قصب السبق " أى فاز فيه .
٣ ـ البر ما يجمع صفات الخير وضده الفاجر .
٤ ـ أنفر أمة : أى أنهم كثيرون منتشرون والأمة تطلق على عشيرة الرجل وعلى الرجل الجامع لصفات الخير . كقوله تعالى : إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً .
٥ ـ قمة كل شيء أعلاه ، والقامة . وأبعد همة : أى أن عزائمهم لا تقصد إلاّ عوالى الأمور .

زهير) فبدأ بتفريق أنصار كل زعيم منهما ، لأن الجماعة لا عقل لها ٠ والعقل الجمعى سريع التأثر حاد الانفعال .

ثم انفرد بكل منهما وخوفه من صاحبه ، حتى تمنى سرعة الفصل والتسوية بينه وبين صاحبه ٠ وعند ذلك جمعهما على مشهد من الناس وقال لهما : " أنتما كركبتى البعير تقعان إلى الأرض معا ، وتقومان معا " فرضيا بقوله وانصرفا إلى حيِّيْهما ٠ وهذا الفصل هو الذى أشاد به عمر -رضى الله عنه- عندما لقى هَرَمًا الذى عُمِّر إلى عهد الفاروق .

(ب) الوصايا :-

وهى تكون من حكيم لقومه أو من سيد لعشيرته أو من الوالدين لأبنائهما عند العزم على سفر أو الشعور بدنوّ الأجل ، أو انتقال الفتاة إلى بيت الزوجية .

وإليك نماذج خالدة من هذه الوصايا :

١-وصية الحارث بن كعب لبنيه :-

● التعريف بالحارث بن كعب :-

هو الحارث بن كعب بن وعلة بن خالد بن أدد المذحجى ، من قبيلة مُذحج ، وكان رجلاً حكيمًا ، وقد عمَّر طويلاً ، وحين أحسَّ بدنوّ أجله ، دعا أبناءَه ، وأوصاهم بطائفة من الفضائل الحميدة التى تنفعهم فى حياتهم ، وبعد مماتهم .

نص الوصية :-

قال الحارث لأبنائه : " يا بَنىَّ ، قد أتتْ علىَّ مائةٌ وستون سنةً ، ما صافَحتْ فيها يمينى يمينَ غادر ، ولا قنعتْ لنفسى بخُلَّةِ فاجر ، ولا صَبوتُ [١] بابنة عمٍّ ولا بُحْتُ [٢] لصديق بسرّ ، ولا بقِى على دين عيسى بن مريمَ غيرى ، وغير تميم بن مرّةٍ ، وأسدِ بن خزيمةٍ فمُوتوا على شريعتى ، واحفظوا وصيَّتى ، وإلهَكم فاتقوا يكفِكم ما أهمَّكم [٣] ويصلح لكم حالكمْ ، وإيّاكم ومعصيتهُ ، فيحلَّ بكم الدّمار ، ويُوحشَ منكم الديارَ.[٤]

---

١ ـ الصّبوة : رقة القلب وضعفه .
٢ ـ باح بالسر : أذاعه ونشره .
٣ ـ أهمكم : شغلكم أو : ما اهتممتم به من شئونكم .
٤ ـ يوحش الديار : يجعلها مخيفة لخرابها ودمارها .

يا بَنِيَّ ، كونوا جميعًا ، ولا تفرَّقوا فتكونوا شيعًا وبُزُّوا قبل أن تُبَزُّوا [1] فموتٌ في عزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلٍ وعجزٍ فكل ما هو كائنٌ كائنٌ [2] وكل جمعٍ إلى تبايُنٍ .[3]

والدهرُ ضربان : ضربٌ بلاءٌ ، وضرب رخاءٌ،واليوم يومان يوم حيْرةٍ ويومُ عَبْرةٍ [4] ، والناس رجلان : رجلٌ لَكَ ، ورجل عليك .

زوِّجوا النساء الأكفاءَ ،و إلاّ فلتنتظروا بهنَّ القضاء [5] ،وليكن أطيب طِيبِهنَّ الماء ، وإياكم والوَرْهَاء [6] فإنها أذوأ الدَّاءِ ، وإنَّ وَلدها إلى أَفَن [7] يكون [8] . لا راحةَ لقاطعِ القرابةِ وإذا اختلف القومُ أمكنوا عَدوَّهم ، وآفة العدد : اختلاف الكلمة .

والتفضُّل بالحسنةِ ، يقى [9] السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخولٌ فيها ، وعمل السَّوْءَةِ يزيل النَّعْمَاء ، وقطيعة الرحم تورث الهَمّ [10] ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق [11]الوالدين يُعْقِبُ النكدَ ، ويُخْرِب البلدَ ، والإسراف في النصيحة ، هو الفضيحةُ ، والحقد [12] يمنع الرِّفْد [13] ، ولزوم الخَطيَّةِ ، يُعْقِبُ البليَّةَ ، وسوء الرَّعَةِ [14] ، يقتلع أسباب المنفعة ، والضغائن [15] تدعو إلى التباين [16] .

---

١ - اغلبوا وانتصروا قبل أن تُغلبوا وتُهزموا .
٢ - كائن الأولى : مقدّر ، وكائن الثانية : واقع .
٣ - تباين : تفرق وانفصال .
٤ - أى يوم سعادة ويوم تعاسة .
٥ - الموت عوانس .
٦- الورهاء : الحمقاء .
٧ - أفن : فساد .
٨ - يكون : يصبح .
٩ - يقى : يمنع .
١٠ - تورث : تعقب وتخلف .
١١- العقوق : ضد البر ، وهو الصلة والخير .
١٢ - الحقد : إسرار العداوة فى القلب .
١٣ - الرِّفد : الصفاء والصلة .
١٤- الرعة : الطريقة أو السلوك .
١٥ - الضغائن : جمع ضغينة وهى الحقد .
١٦- الانفصال والانقطاع .

التعليق على النص :-

ذكرنا أن الوصية لون من النثر الفنى ، وأنها تصدر من رجل حكيم لقومه أو من أب لأولاده ، أو من أم لابنتها ، وفيها يضع الحكيم خلاصة تجاربه في الحياة لينتفع بها غيره ٠ والوصية التى معنا تشتمل على عديد من الوصايا والتجارب الحكيمة النافعة ، التى لو أخذ الإنسان نفسه بها ، لأصبح في صفوف السعداء الهانئين بحياتهم .

الأفكار التى اشتملت عليها هذه الوصية مشفوعة بالتوضيح والتحليل :-

● أفكار الوصية :-

اشتملت هذه الوصية الحكيمة على عدد كبير من الأفكار النافعة ، والتوجيهات الرشيدة ، ولعل أهم هذه الأفكار ما يلى :

(١) الأمر بالخوف من الله والتحذير من معصيته .

والخوف معناه : تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل ٠ فالمؤمن يتخذ من مخافة الله بابًا للطاعة ، وهو يُوقن أن خوفه منه متولد عن حب وتقدير للذات العلية ، لأن بعض الخوف يورث الكراهية والبغضاء كما في عالم البشر ، وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك جاء عن النبى (ﷺ) : " أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية " وقال تعالى : ﴿ ..... يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا..... ﴾ [فاطر: ٢٨] .

والخوف عندما يستقر في نفس المؤمن ، يظهر أثره على جوارحه ، وذلك يظهر حين يكف الإنسان نفسه عن المعاصى ، ويلزمها بالطاعات ، تلافيًا لما فرّط ، واستعدادًا للمستقبل .

(٢) الدعوة الى وحدة الكلمة وجمع الشمل ، والتحذير من الاختلاف ٠

الدعوة إلى الوحدة والجماعة مبدأ نبيل ، وهدف سامٍ ، وهو أحد المحاور المهمة التى ركز عليها هذا الحكيم عندما أراد أن يوصى أبناءه بما ينفعهم .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية - بعد ذلك - فأقرت هذا المبدأ ، ودعت إليه ، وحذرت من الاختلاف والتنافر بين أبناء الأمة الواحدة ، فالجماعة سمة عظيمة

من سمات الإسلام بها تتآلف القلوب ، ويتحد الصف ، ويجتمع الشمل ، ويقرُب البعيد ، ويتم القضاء على بواعث الشقاق والفرقة ، وذلك عملاً بقول الله - تعالى- :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ..... ﴾ آل عمران : من الآية : ١٠٣ .

كما أن رأى الجماعة حين يجتمع يكون أفضل من رأى الفرد مجردًا ، حتى ولو كان بين عناصر الجماعة أنماط شاحبة من الخلاف الخلاّق .

فالحال كما قال شوقى :

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ، ورأى الفرد يُشْقيها

(٣) الدعوة إلى إعداد العُدة دائمًا ليفوزوا بالنصر على أعدائهم .

(٤) الدعوة إلى أخذ الحيطة والحذر من الدهر.

(٥) الدعوة إلى حُسن الخُلُق وذلك يشمل أمورًا مهمة جاءت في الوصية وهى(صلة الأرحام ، مقابلة السيئة بالحسنة ، البعد عن المحرمات ، تجنب عقوق الوالدين ، وتجنب الحقد والحسد) .

(٦) التحذير من سوء السمعة بين الناس .

التحليل :-

في هذه الوصية الجليلة ، التي تقدم بها والد الى ولده ، نلحظ أمورًا فنية ، منها :

- أن هذا الحكيم استعمل الألفاظ الضخمة ، والعبارات الجزلة ، والأساليب البليغة ليعبر - من خلال ذلك كله - عن مراده .
- واختياره لهذا اللون من التعبير مناسب تمامًا لجو الوصية ، ومناسب لسن الرجل كما أنه مناسب لطبيعة الرجل ، وطبيعة المرحلة الزمنية ، التى وُلدت فيها هذه الوصية ، وقد عُرفت قبيلة مذحج ببلاغتها ، وكثرة حكمائها .
- ويلاحظ أن الرجل اختار جُملاً قصيرة ليعبر بها عن مراده ، كما أنه اعتمد على السجع ، وعلى الإيقاع الموسيقى ، وكل ذلك مشاهد في النص ، ولا يحتاج في إدراكه إلى كثير عناء ، فكل جملة في الوصية تكاد تستقل بنفسها تمامًا .

- قلة الصور البلاغية في الوصية ، ولعل السر في ذلك : هو أن العرب في جاهليتهم كانوا يؤثرون التعبير المباشر الذى يقصد إلى المعنى من أقرب طريق ، حتى لو احتاج الأمر إلى إدخال لون بلاغى أو صورة أو غير ذلك ، فإنه يأتى ساذجًا وغير معقد .
- اعتمد الحكيم في وصيته على توضيح الفكرة ، والإقناع العقلى ، والتركيز ، وعدم الترتيب المنطقى .

القيمة الفنية للوصية :-

هذه الوصية تشير إلى القيم المثالية عند سادة العرب ، وهى حُسن تصرف الإنسان ووحدة الرأى ، والشجاعة ، والعزة ، والمروءة ، والبعد عن الرذائل ، وكلها صفات سامية .

وهذه الأهداف أو الغايات التى تتغياها الوصية ، تجعل منها تاجًا جميلاً ينبغى أن يُكلَّل به الجميع .

٢-وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى لابنتها أم إياس ليلة زفافها :-

كان عمرو بن حجر جد امرئ القيس قد خطبها إلى أبيها فزوجها منه ٠ فلما أوشك زفافها أن يتم أوصتها أمها وصية عظيمة يحق لنا أن نُزهى بها ، وأن نتيه بهؤلاء الأجداد العظام ، الذين تغلبوا على ظروفهم الطبيعية الصعبة ، وتساموا فوق كافة الظروف التى كانت تحول بينهم وبين الارتفاع إلى هذا المستوى الرفيع الذى بلغوه .

تقول الأم :-

" أى بُنيَّة إنك فارقتِ بيتكِ الذى منه خرجْتِ ، وعشَّكِ الذى فيه درجْتِ إلى رجلٍ لم تعرفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فكونى له أمَةً يكن لك عبدًا [1] واحفظى له خصالاً عشرًا يكن لك ذُخْرًا ، أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة ، وحُسْن السمع له والطاعة ٠ أما الثالثة والرابعة : فالتفقُّد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلاّ أطيب ريح ٠ وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه : فان تواتر الجوع

---

١ ـ المقصود : كونى مطيعة له يهيىء لك كل أسباب السعادة ، ولا يفعل إلاّ ما يرضيك ويسعدك .

مَلْهَبَةٌ[1] وتنغيص النوم مَعْضبة[2] . أما السابعة والثامنة : فالاحترَس بماله والإرعاء على حشمه وعياله[3] . وملاك الأمر في المال حسن التقدير وفي العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمرًا ولا تفشين له سرًا فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره[4] . وإن أفشيت سره لم تأمن غدره . ثم إياك والفرح بين يديه اذا كان مهتمًا[5] ، والكآبة بين يديه اذا كان فرحًا .

وصية أوس بن حارثة لابنه مالك

عاش الأوس بن حارثة دهرًا ، وليس له ولد إلاّ مالك ؛ وكان لأخيه الخَزْرج خمسة : عمرو ، وعوف ، وجُشَم ، والحرث ، وكعب .

فلما حضره الموت : قال له قومه : قد كنا نأمرك بالتزويج في شبابك ، فلم تتزَوَّجْ حتى حضرك الموت ، فقال الأوس:" لم يهلك هالك ، ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فلعل الذى استخرج العذق [6] من الجريمة [7] والنار من الوثيمة [8] أن يجعل لمالك نَسْلاً ، ورجالاً بُسْلاً [9] ، يا مالك ، المَنِيَّةُ ولا الدنِيَّة ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلُّدُ لا التبلُّد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، وشَرَّ شَارِبٍ المشتفّ [10] ، وأقبح طَاعِمٍ المُقْتَفّ [11] وذهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم : الدفاع

---

١ ـ ملهبة : يقال فلان يلتهب جوعًا : أى يتحرق جوعًا .
٢ ـ إقلاق راحته مثير لغضبه .
٣ ـ حشمه : خاصته من عبيد أو أهل أو جيرة .
٤ ـ أغضبته منك .
٥ ـ مهتماً : مغمومًا .
٦ - العذق : النخلة بحملها والعذق بكسر العين القنو منها .
٧ - النواة .
٨ - الحبارة ، وثمة : كثرة ودقة . ووثم الفرس الأرض : رجمها بحوافره . (ومن أيمان العرب لا والذى أخرج العذق من الجريمة . والنار من الوثيمة ، وقولهم : لا والذى شقهنّ خمساً من واحدة يعنون الأصابع ، وقولهم : لا والذى أخرج قائمة من قوب يعنون فرخاً من بيضة . لا والذى وجهى ذمم بينه (بالتحريك) أى قصده وحذاءه .
٩ - بسلاً : جمع باسل .
١٠ - المستقصى : اشتفّ ما فى الإناء شربه كله . واشتفّ إذا شرب الشفافة (بالضم) ، وهى البقية تبقى فى الإناء .
١١ - الآخذ بعجلة ، ومنه سُمى القفاف وهو من يسرق الدراهم بين أصابعه .

عن الحريم ، وَمَنْ قَلَّ ذلَّ ، ومن أُمِرَ[1] فَلَّ ، وخير الغنى القناعة وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان ، فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كَان لك فلا تبطَر وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهما سَيَنْحَسِر[2] فإنما تَعُزُّ[3] من ترى ويعزّك من لم ترى ، ولو كان الموت يُشترى ، أسلم منه أهل الدنيا ، ولكن الناس فيه مستوون ، الشريف الأبلج واللئيم المُعَلْهَج [4] والموت المُفِيت ، خير من أن يقال لك هَبِيت [5] ، وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة ، وشر من المصيبة سوء الخلف ، وكل مجموع إلى تلف، حيَّاك إلهك .

****

وصية ذى الاصبع العدوانى لابنه أسيد

لما احتضر[6] ذو الإصبع دعا ابنه أسيدًا فقال له : يا بنى إن أباك قد فَنِى وهو حى وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته ، فاحفظ عنى . أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، وأرحم حريمك وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ [7]فإن لك أجلاً لا يَعْدُوك ، وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئًا فبذلك يتم سُؤددك .

---

١ - أمر : كفرح أمراً وأمرة كنز وتم فهو أمر (وآمره الله وأمره كنصره ٠ كثره : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، أى كثرنا .
٢ - ينكشف .
٣ - تغلب ٠ عزه يعزه كنصره عزاً ، وعزّ يعزّ كضرب عزاً وعزة صار عزيزاً.
٤ - التناهى فى الداءة واللؤم .
٥ ـ الأحمق الضعيف .
٦ ـ حضره الموت .
٧ ـ أى فى وقت الصريخ وهو نداء المستغيث .

وصية أكثم بن صيفى لبنيه ورهطه

وصى أكثم بن صيفى بنيه ورهطه ، فقال : " يا بَنِى تميم لا يَفُوتَنَّكم وَعْظِى إن فاتكم الدهر بنفسى ، إن بين حَيْزُومى [1] وصدرى لكلامًا لا أجد له مواقع إلاّ أسماعكم ، ولا مَقارَّ إلاّ قلوبكم ، فتلقَّوْه بأسماع مصغية وقلوب واعية ، تحمدوا مَغَبَّته ، والهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول [2] والنفس مهملة ، والرؤية مقيدة ومن جهة التوانى وترك الرؤية ، يتلف الحزم ، ولن يعدم المشاور مُرْشِدًا ، والمستبدّ برأيه موقوف على مداحض [3] الزلل ، ومن سَمِع سُمِع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وُجدت إلا في مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ومن سلك الجَدَد [4] أمن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ، ويُؤَرِّث [5] غيظه ، ولا تجاوز مَضرَّته نفسه .

يا بنى تميم : الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة ، ومَنْ جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان ، والكلمة مرهونة ما لم تَنْجُم من الفم ، فإذا نجمت فهى أسد مُحَرَّب [6] أو نار تلهب ، ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز ونفاذ الرأى في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب " .

.....

نصيحة أكثم بن صيفى لقومه

ونصح قومه فقال : " أَقِلُّوا الخلاف على أُمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، والمرء يعجز لا محالة ، يا قوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الرَّكِين [7] ورُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاَ [8] وتَزِيُوا للحرب ، وادَّرِعُوا الليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة لمن اختلف " .

---

١ - وسط الصدر وما يضم عليه الحزام .
٢ - محبوس .
٣ - جمع مدحضة ، وهى المذلة .
٤ - الأرض المستوية .
٥ - يوقد .
٦ - التحريب : التحريش والتحديد ، والمحرب والمتحرب .
٧ - الرزين .
٨ - بطئاً .

والدهر ضربان ، ضرب بلاء ، ضرب رخاء ، واليوم يومان ، يوم حُبْرة ويوم عبرة ، والناس رجلان ، رجل لك ، ورجل عليك ، زوِّجوا النساء الأكفاء ، و إلاّ فانتظروا بهن القضاء وليكن أطيب طِيبِهنَّ الماء ، وإياكم والوَرْهَاء [1] فإنها أدوأ الدَّاءِ ، وإن وَلدها إلى أَفَن [2] يكون لا راحة لقاطع القرابة ، وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوَّهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة ، يقى السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخولٌ فيها ، وعمل السَّوْءَةِ يزيل النَّعْمَاء ، وقطيعة الرحم تورث الهَمّ ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يعقب النكد ، ويخرب البلد ، ويمحق العدد ، والإسراف في النصيحة ، هو الفضيحة ، والحقد يمنع الرِّفد ، ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الرعة ، يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ، يا بَنى ، إنى قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وغَبَرْت ، وكأنى بهم قد لَحِقت ، ثم قال :

أكلـــت شـــبابى فأفنيتـــه ... وأبليـــت بعـــد دهـــورٍ دهـــورًا
ثلاثـــة أهلـــين صـــاحبتهم ... فبـــادوا وأصـــبحت شـــيخا كبيـــرًا
قليـــل الطعـــام ، عســـير القيـــام ... قـــد تـــرك الـــدهر خطـــوى قصـــيرًا
أبيـــت أراعـــى نجـــوم السَّـــماء ... أُقَلِّـــبُ أمـــرى بطونًـــا ظهـــورًا

****

ثانيًا : الحكمة والمثل :-

الحكمة :-

قول موجز يصور حقيقة كلية أو مجربة ، ويتضمن أحيانًا حِكمًا مُسلّمًا بها في الحث على الخير أو النهى عن الشر . وقد ذاعت بين العرب الأميين لحاجتهم إلى تصفية تجاربهم وتركيزها في تلك العبارات المكثفة الموحية التى يسهل حفظها ، ثم هى تتفق مع ميل العرب إلى الفصاحة والإعجاب بصناعة الكلام التى علا قدرها بينهم . حتى وجدنا المعجزة التى هدتهم إلى الإسلام (القرآن الكريم) من الجنس الذى برزوا فيه .

---

١ - إطفاء : من وره كفرح : حمق فهو أوره .
٢ - ضعف الرأى والعقل .

وقد عُرف كثير من الجاهلين بقول الحكمة كأكثم بن صيفى الذى ينسب إليه منها : " خير الأعوان مَنْ لم يُراءِ بالنصيحة " ، " شر الملوك من خافه البرىء ، رُبَّ قَوْلٍ أنفذُ من صوْل " [1] ، "مقتل الرجل بين فَكَّيه"([2]) " رُبَّ عَجَلة تهب رَيْثاً " [3] .

ومنهم " ذو الإصْبَع العَدْوانى " [4] و" قيس بن ساعدة " و" لقمان "[5] .

وقد تأتى الحكم مبثوثة في ثنايا الشعر ؛ دعمًا للتجربة التى يتحدث عنها الشاعر أو تجسيدًا لها وإبرازًا ، ومن الشعراء الذين عُرفوا بذلك : زهير بن أبى سُلمى ، فهو في ختام معلقته يسوق عددًا منها ، مصفِّيًا فيها التجارب العديدة التى حوتها المعلقة ، ولا غرو في ذلك لأن الشعراء يمثلون في المجتمع الجاهلى " طبقته المستنيرة " التى استطاعت بنفاذ بصيرتها أن تضع يدها على كثير من حقائق الحياة وطبائع الأمور فصاغوا ذلك حِكمًا دقيقة تساعد غيرهم على فهم الحياة .

يقول زهير فى بعض هذه الحكم :-

ومن لم يُصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُطأ بِمَنْسِمِ [6]
ومن يجعل المعروفَ من دون عرضه يَفِرْهُ ، ومن لا يَتَّقِ الشَّتم يُشْتم [7]
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله على قومه ، يُستغن عنه ويُذمم [8]

*****

١ - قد تكون الكلمة السديدة أجدى فى حل المشكلات من القتال وسفك الدماء .
٢ - أى فى لسانه وكلامه .
٣ - قد ينشأ عن العجلة عدم الإعداد للأمر كما ينبغى فلا ينفذ فلا تتم المصلحة . ومن هنا تسببت العجلة فى الريث : البطء .
٤ - حرثان بن محرث وسُمى بذلك لأن حية نهشته فى اصبعه .
٥ - هو لقمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية البائدة التى كانت تسكن الأحقاب وهو غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم ، وكانت العرب تعظم شأنه فى النباهة واللسان والحلم (البيان والتبيين ١/ ١٨٤) وليس ثمة دليل على ما ذهب إليه كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية من أن شخصية لقمان قد مرت بثلاث مراحل : ١ ـ المرحلة الجاهلية السابقة . ٢ ـ المرحلة القرآنية . ٣ ـ ثم مرحلة متأخرة حَيك حولو فيها كثير من الأساطير ، لأننا لا يمكن أن نسلم بذلك إلاّ إذا سلمنا أن لقمان عاد هو نفس لقمان المذكور فى القرآن ، وليس فى أيدينا ما يثبت ذلك.
٦- المصانعة : الكياسة والمرونة فى مواجهة شئون الحياة . الضرس : الطحن الشديد بالأضراس . المنسم : خف البعير . وهو هنا لا يدعو الى الاحتيال والنفاق بل الى التصرف والتحلى بالحلم .
٧ - يفره : يحفظه يدعو الى بذل كل نفس لكى يحفظ الإنسان عرضه ويقى حسبه من هجوم السفهاء.
٨ - البخيل يصبح هملاً فى قومه ، فضلاً عن صيرورته هدفاً لذمهم .

ومن يجعل المعروفَ في غير أهله يكــن حمــده ذمــاً عليــه ويَنــدم [1]

ومن أشهر الشعراء الذين اشتهروا بالحكمة أمية بن أبى الصلت ، وطرفة ابن العبد - هذا الشاب الصعلوك الذى عكس كثيرًا من فلسفته اللاهية البائسة في معلقته - من مثل قوله :

أرى قبــر نحَّــامٍ بخيــلٍ بمالــه كقبــر غــويٍّ فــي البطالــة مُفسـد [2]
أرى العيشَ كنـزًا ناقصًـا كـل ليلـةٍ ومـا تـنقُص الأيَّـامُ والـدهرُ ينفـد [3]
ستبدى لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ويأتيـكَ بالأخبـارِ مـن لـم تُـزوِّد [4]
لعمركَ إنَّ الموت ما أخطأ الفتى لكـالطِّوَل المرُخـى وثِنْيـاه باليـد [5]
متـى مـا يشـأ يومًـا يقُـدْهُ لِحتْفـهِ ومـن يـكُ فـي حـبل المنيـة ينْقَـد [6]

وينطبق التعريف السابق للحكمة على المثل ، غير أنه قد يزيد عليها بأن يشير إلى قصة أو يرتبط بحادثة • وهو عند إشارته تلك **يمكن أن يعرف بأنه** " قول موجز سائر ذو مضرب وذو مورد " أو هى عبارات تضرب في حوادث تشبه الحوادث الأصلية التى قيلت فيها هذه العبارات أول مرة .

وفي التراث الأدبى كتب اهتمت بالأمثال واقتصرت عليها وأفاضت في الحديث عنها ، مثل : مجمع الأمثال للميدانى ، وكتاب الأمثال للمفضل الضبى وجمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى • وفي مثل هذه من كتب التراث نجد طائفة ضخمة من الأمثال مبثوثة في تضاعيفها .

---

١ -يحذر من البذل فى غير موضعه لأنه يورث صاحبه الحسرة والندامة ، فينبغى أن يتبصر الإنسان فى إنفاقه .
٢- نحام : الحريص • الغوى : الضال المنكب عن طريق الصواب .
٣ - الكنز : المال المدفون ، ومثل العمر بالمنز لأن المال عديل الروح المحبة • ينفد : يقضى .
٤ - ستبدى : ستظهر • من لم تزود : من لم تعطه زاداً وطعاماً ليسافر ويبحث لك عن الأخبار ونجده ينهى حديثه مع من شكك فى كلامه عن حتم الموت وكأنه يقول له : ان المستقبل كفيل بأن يعلمك ما لم تكن تعلم وسوف يأتيك بالعبرة والخير من لم تعده لهما ، بل لم تتوقع منه ذلك .
٥ - عمرك : عمرك ، وهو أسلوب فى القسم ، واللام لام القَسَم ، وعمر مبتدأ خبره محذوف وجوبًا تقديره " قسمى " الطول : حبل الدابة المرخى الذى وسع للدابة فيه • فبينما توهم حركتها مطلق حريتها ، إذ هى مقيدة بقيود لا تستطيع لها فكاكاً ، ثناه : تثنية ثِنى وهو الطرف الذى يثنى باليد .
٦ - يقده : يجره • الحتف : الهلاك والموت • ينقد : يجر ولا يستعصى .

ويجتهد هؤلاء العلماء في ذكر القصص الكثيرة التى توضح " مورد " المثل ، وقد شاب كثير من هذه القصص ألوان من المبالغة والتزيّد ، أو على حد قول " بروكلمان " [1] أن مَنْ عُنُوا بجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة في حيرة من تفسيرها ، ولكن ما رُوِى في هذا التفسير ليس أجدر بالثقة من قصصهم في شرح الأبيات المبهمة ، وما ذلك إلاّ لِبُعد أصحاب هذه القصص بعدًا يدعو إلى الحذر في تفسيرهم لتلك الأمثال .

ومن الأمثال المأثورة عن العصر الجاهلى" أن العَوَانَ لا تُعَلَّم الخِمْرة " [2] " تجوع الحرة ولا تأكل بثديَيْها " [3] ، " رمتنى بدائها وانسَّلت " [4] ، "إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد" ، " إنما المرء بأصغريْه : قلبه ولسانه " ، "ويل للشجيِّ من الخليِّ" [5] ، " لكل جوادٍ كبوة ولكل صارم نَبْوة " [6] ، " الحر حرٌّ وإن مسَّه الضّرّ " [7] ، " أسمع جعجعة ولا أرى طِحنًا" [8] " المقدرة تُذهب الحفيظة " [9] ، " كلُّ مُجْرٍ في الخلاء يُسَرّ " [10] .

وقد سار مؤلفو كتب الأمثال على ترتيبها حسب حروفها الأولى على نحو قريب من ترتيب المعاجم ، ثم يفسرونها ويقصون الحوادث التى يرونها أساسًا لها ومرتبطة بها .

ولأن الأمثال لا تغير ، بل تضرب بصورتها التى جاءت عليها في موردها لم يكن من المدهش أن يؤدى الالتزام إلى بعض المخالفة للقواعد اللغوية. كقولهم " الصيف ضيَّعتِ

---

١ -انظر تاريخ الأدب العربى ١ / ١٢٩ .
٢ - العوان : الأنثى الناضجة . الخمرة : لبس الخمار ويضرب للعالم بالأمر المجرب له.
٣ - أى لا تكون الحرة ظئراً وان آذاها الجوع . يضرب لترفُّع الكريم عن امتهان الأمور الخسيسة للارتزاق .
٤ - يُضرب لمن يلصق رذائله بغيره .
٥ - الشجى : المحزون المهموم . الخلى : الخالى من الهموم .
٦ - يضرب للتسرية عمن أخفق فى تحقيق هدفه . فالفرس الأصيل قد يتعثر والسيف القاطع قد لا يتمكن من القطع .
٧ - يضرب لمن يتمسك بالقيم الرفيعة على الرغم من ظروفه الصعبة .
٨ - الجعجعة : صوت الرحى التى تطحن طحناً بكسر الطاء : الدقيق . يضرب لكثير الصياح قليل الفعال
٩ - المقدرة : القدرة . الحفيظة : الغضب . يضرب فى العفو عند المقدرة .
١٠ - المجرى الذى يجرى فرسه.يضرب مثلاً للرجل يحمد بعض صفاته ، ويتغاضى عن فضائل غيره .

اللبن " [1] بكسر التاء حتى لو خوطب بها المذكر أو المثنى أو الجمع ٠ و" اعط القوس باريها " [2] بتسكين الباء مع أن الصواب فتحها .

وقد يتمثل بالقول على لسان طائر أو بهيمة ، نزوعًا إلى الاستطراف ، كالذى في كليلة ودمنة ، من هذه القصص المترجمة الواردة على لسان الحيوان ٠ ويطلق على مثل هذا النوع " الأمثال الفرضية " كقولهم " في بيته يُؤتى الحَكَم " [3] .

والغالب في المثل أن يكون حقيقى الدلالة خاليًا من القيم التصويرية والموسيقية ، لأنه في الأصل جاء متصلاً بلغة الحياة اليومية التى لا يعمد أصحابها في حديثهم إلى مثل هذه القيم ٠ ولعل ذلك يمكن أن يُعلل لخروج بعضها على قواعد اللغة ٠ غير أنه يحدث أحيانًا أن تَرِدْ هذه الأمثال على ألسنة " الطبقة المستنيرة " في المجتمع الجاهلى من شعراء وخطباء ، وهنا نجدها تكتسى بطائفة من تلك القيم ، ويحاول هؤلاء أن يتأنقوا في صياغة المثل صياغةً جميلة ترضى أذواقهم الفنية .

وهذا التأنق هو الذى دعاه الدكتور شوقى ضيف بـ " الصنعة في الأمثال الجاهلية [4] من هذه الأمثال المصنوعة : "أن البُغاث بأرضنا يستنسر"[5] .

" كالمستجير بالرَّمْضاء بالنار " [6] ، " في الجريرة تشترك العشيرة "[7] " رب صلَفٍ تحت الرَّاعدة " [8] ، " استنوق الجمل " [9] ، " لا تكن رطبًا فتُعْصر ولا يابساً فتُكْسر " [10] ، " المنية ولا الدنية " [11] .

---

١ - يضرب لطلب الحاجة بعد فوات الأوان .
٢ - يضرب فى ضرورة إسناد الأعمال الى الخبراء فيها .
٣ - انظر الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ٨٣ / ٨٤ .
٤ - انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى صـ ٢٥ ٠
٥- البغاث : الطير الضعيف ، يضرب للضعيف الذى يدعى قوة لا يملكها ٠
٦ - الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة ٠
٧ - الجريرة : الجناية التى يتحملها الجميع ٠
٨ - الراعدة : السحابة والصلف : قلة الخير والمطر ٠ يضرب للبخيل الغنى ٠
٩ - استنوق : صار ناقة يضرب لمن يزعم الشجاعة ثم يظهر جبنه ٠
١٠ - رطبًا : ليِّنًا ٠ يابسًا : جامدًا ، يضرب طلبًا للتوسط في الأمور ٠
١١ - الدنية : العمل الدنىء ٠

فمن الراجح أن هذه الأمثال تحتوى على ضرب من الجمال الفنى يرجع بعضها إلى صياغتها ، ويرجع الآخر إلى ما تعتمد عليه من سجع أو توقيع ، وهذا هو السر في ثناء القدماء عليها وتفضيلهم إياها على الحكمة وأنها " نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكتابة " [1] .

****

ثالثًا : سجـع الكهـان :-

شاعت الكهانة بين الجاهليين فآمنوا بها وصدقوا ما يقوله الكهنة الذين احتلوا منزلة عالية تتناسب عكسيًا مع غياب النظر العلمى عن هذا المجتمع ، وعدم وجود عقيدة تحول بينه وبين الاستسلام للأوهام ، ولذلك عمد هؤلاء الكهان إلى إلهاء السامعين عن إنعام النظر فيما يلقونه إليهم من غرائب تستعصى على العقول بالإفراط في الحِلَى اللفظية التى تختلق المعانى وتفتح الباب واسعًا أمام التأويل ، واختلاف الآراء حتى لا يفهم كل سامع من الحديث ما يريده وما يسره ، ويشبه ذلك من بعض الوجوه ما يقوم به بعض الدجالين والمشعوذين تجاه من يستعينون بهم من السذج والدهماء .

وقد أحاطت طائفة الكهان نفسها بهالة من الأساطير والخزعبلات ، والغريب أن كثيرًا من العلماء القدامى قد نقل كلام كل منهم ولم يوثقه أو يدحضه ، بل أن التزيد والمبالغة قد حل بكثير من أخبار هؤلاء الكهان بالنثر المنسوب إليهم .

فيقال أن كل كاهن كان له رَئِىّ [2] من الجن يسرق له السمع من الملائكة ثم يلقيه إليه فيخبر به الناس عند استبهام أمر أو افتقاد ضالة من متاع أو مال ، كما أن الجاهلين كانوا يفزعون إليهم في المُلمَّات من الأمور كإعلان الحرب أو القعود عن نصرة الأحلاف أو الكشف عن الفاعل في جناية قتل . وما أن يعرض الجاهلى حاجته على الكاهن حتى يُصيخ السمع لكل ما يقوله مصدقًا ، ولما يشير به منفذًا [3] .

---

١ - انظر الفن ومواهبه صـ ٢٦ .

٢ - الرئى : الجنّى يعرض للإنسان ويطلعه على ما يزعم أنه الغيب وفلان رئى قومه : صاحب الرأى فيهم .

٣ - انظر الأغانى (دار الكتب) ١١ / ١١٨ ، ١١٩.

وقد اشتهر كثير من الكهان لدرجة أن شهرته لم تقتصر على قبيلته ، بل تجاوزتها إلى القبائل الأخرى ، فمن كواهنهم : " طريفة " الكاهنة باليمن و" فاطمة الخَثْعميّة " بمكة ومن أشهر كهانهم: " شِقّ أَنمار " و " سَطيح الذّئبى " ، ويقولون أن شقًّا هذا كان نصف إنسان ، له عين واحدة ويد ورِجل واحدة ٠ وأن سَطيحًا لم يكن في جسمه عظم إلاّ الجمجمة وأن وجهه كان في صدره ! وانظر إلى رد سَطيح على رسول أمير غسان الذى جاءه قبيل وفاته ، وبعد ظهور البشائر بمقدم الرسول (ﷺ) ٠ يقول : " عبد المسيح ، على جمل مُشِيح ، إلى سَطيح ، وقد أوفى على الضَّريح ، بعثك ملك بنى سلمان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ٠٠ " إلى آخر هذا السجع المتكلف المشكوك في صحته .

على أن هذا الرفض لما يُرى من أقوالهم وخطبهم لا يمنع من الظن أنهم كانوا يسجعون في كلامهم ، و إلاّ لما استقر عند جميع مَنْ تحلو لهم بعضَ الأقوال أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كهانتهم [1] ، ولعل هذا السجع هو الذى يقف وراء اتهام المشركين لما يتلوه الرسول (ﷺ) من القرآن الكريم بأنه من كلام الكهان .

ولذلك فنّد الله سبحانه وتعالى هذا الزعم " فذكِّر فما أنت بنعمة ربكَ بكاهن ولا مجنون " [2] ، " إنّه لقول رسولٍ كريم ، وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تُؤمنون ، ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكرون " [3] .

وقد عقب الرسول الكريم بقوله : " أسجعٌ كسجع الكُهَّان " على قول واحد منهم . عندما حكم عليه بالدِّيَة فى جنين قُتلت أمه . آدِى (أدفع دية) من لا شرِب ولا أكلَ ، ولا صاح ولا استهلّ ومثل ذلك يُطلّ (يُهدر دمه)[4] كما يرى الجاحظ أيضًا قول كاهنة

---

١ - الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص٤٠ .
٢ - سورة الطور الآية ٢٩.
٣ - سورة الحاقة الآية ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .
٤ - انظر البيان والتبيين ٢٨٧/١ .

منهم : [1] " والأرض والسماء ، والعُقاب والصَّقعاء ، واقعةً ببقعاء ، لقد نفَّرَ المجد من بنى العُشَراء ، للمجد والسناء " [2] .

وإذا صح الظن السابق من لجوء الكهان إلى السجع ، فإنه يمكن القول أنهم كانوا أيضًا يعتمدون على القسم بالقوى الكونية التى يظن أنها تحمل تأثيرات خفية ٠ كما أنهم يعتمدون على الألغاز فى أقوالهم للإيهام بصدقها ، حتى تبهم معانيهم وتغمض دلالاتهم ويكثر فيها الاحتمال والتأويل ٠٠ كذلك كانوا يبنون سجعهم في بعض جوانبه على الرمز ، لأن كهانتهم كانت تقتضى أن يختاروا ألفاظًا مبهمة توعز بما يريدون ، دون أن تفصح عن دلالة بينة " [3] .

****

رابعًا : القصص المنسوب إلى الجاهليين :-

سبق في صدر هذه الدراسة عن النثر القول بأن الشك يحيط بكثير من القصص المنسوب إلى العصر الجاهلى ، على الرغم من أن " تقييدات قُدامى اللغويين والأدباء تعكس روحها وطبيعتها بأمانة ودقة " .

ونشير هنا إلى أن هؤلاء القصاص كانوا يستمدون قصصهم تارة من الأساطير والخرافات السائرة بين الأمم ، وتارة أخرى من الأخبار والأحاديث المأثورة عن العرب أنفسهم وعمن جاورهم ، ويُروى أن : " النضر بن الحارث " المكى كان كثيرًا ما يعارض النبى - صلى الله عليه وسلم- بحكاية أقاصيص من أساطير بطولة الفرس ، إذا أراد النبى أن يعظ قومه ويستميلهم إلى الإسلام بذكر قصص الأولين ، وكان جزاء النضر القتل يوم بدر. [4]

على أن هذه القصص لم تحفل بالدقة التاريخية ، كما يتضح ذلك من الموازنة بين أخبار المؤرخين والرومان والعرب في قصة زنوبيا ، فقد جعل العرب من اسم زنوبيا

---

١ - نفسه ٢٨٩ - ٢٩٠ .
٢ - الصقعاء : الشمس ٠ بقعاء : موضع ٠ نفرهم : حكم لهم بالغلبة بنو العشراء : عشيرة من فزارة٠ السناء : الرفعة .
٣ - انظر الفن ومواهبه فى النثر العربى صـ ٤١ .
٤ - تاريخ الأدب العربى : بروكلمان ١ / ١٢٨.

أو زينب ملكة تدمر: الملكة الزّباء، ولكن هذا الاسم الأخير مشتق من اسم زَبْدِي أمير جيوش الملكة. ولعل العرب كانوا أخوف لهذا الأمير من الملكة نفسها، فأطلقوا اسمه عليها هي وصار هو بطل القصة.

وغدت الصلة مقطوعة بين ما ترويه الكتب العربية عنها وبين الحقائق التاريخية الموثقة التي تقرر أن زنوبيا هي زوج أُذينة الذي قُتل غدرًا، وقد نشرت سلطانها في العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى وصارعت الرومان، حتى تصدى لها "أوريليان" وانتصر على جيوشها وحاصر حاضرتها "تدمر" وطال الحصار ويئست من النصر فحاولت الفرار، ولكن جنوده تعقبوها ثم أخذها معه أسيرة إلى روما. أما في القصة، أو الأسطورة، العربية فليس ثمة صلة بين الزباء فيها وزنوبيا تلك. بل لقد تغير فيها معظم المعالم التاريخية [1].

وإذن فنحن أمام قصص جاهلي غير موثّق ولا يمكن الاعتماد على كثير منه في فهم الحوادث التاريخية، ومن باب أولى في تكوين صورة صحيحة عن نشر هذا العصر.

وكل ما يمكن أن يطمح إليه معظم هذا اللون من النثر أن يُعد نوعًا من التراث الشعبي، الذي يدل على نوع من التفكير "الميثولوجي" يمكن من خلاله أن نحرز كثيرًا من الصفات والقيم التي ذاعت بين الجاهليين.

وبعد، فهذه مختارات نثرية اخترتها لك عزيزي الطالب، وقد وضعت على بعضها شروحًا وتعليقات، وتركت أكثرها غُفْلاً؛ أملاً في أن أجد منك حسًا وذوقًا أدبيًا يستشرف هذه النصوص، ويسبر أغوارها بحثًا عن الأهداف والغايات التي تتغياها هذه النصوص، والتي لا شك في أنها قيم مثالية تربى عليها العربي الأصيل في بيئته العربية الموغلة في القِدم.

أسأل الله العلي القدير أن ينفعنا، وينفع طلاب العلم بما في هذه الصحف من علم تُصر به وجه الله الكريم، والحمد لله في أول كل أمر ومنتهاه.

تم بحمد الله

---

١ - السابق: ص ١٢٩.